الإمام موسى الصدر

التربية والأسرة والمجتمع

بلال حسن نصرالله*

المقدمة

إنّ الوظيفة الأساسية للأديان هي توجيه الناس، وإنارة طريقهم لتسهيل حياتهم بما يحقق لهم الخير الذي سيمكّنهم من العمل الذي سيؤدي بهم إلى السعادة الأخروية التي بشّرت بها جميع الرسالات. وقد أُنزلت الكتب السماوية كدساتير تحتوي على قواعد التنظيم التي يجب الارتكاز والركون إليها، وإلى أحكامها تحقيقا للغاية المذكورة.

جاء النبي محمد (ص) خاتم الأنبياء والرسل، بأخر دستور إلهي من السماء إلى بني البشر أجمعين، وكان هذا الكتاب هو المكمّل لكل القواعد التي سبقت عبر الرسل السابقين، والتي نصّ الجانب الأهم منها على التربية الإنسانية لما في ذلك من تحقيق لصلاح الوجود البشريّ، بأسلوب علمي ومنهجي وتربوي فائق الدقة، لذلك اعتبرت الكتب السماويّة بمثابة المربي الأوّل للإنسان في تحديد معتقداته وإنتماءاته وسلوكه، وكلّ ما يتعلق بسلوك الأنماط الاجتماعية المختلفة في ثقافاتها وعاداتها ومعتقداتها.

عانى المجتمع العربي قبل انتشار الدعوة الإسلامية من فساد خلقي في معظم جوانبه الاجتماعية، فكانت العادات الموروثة هي القانون الّذي تُساس به القبائل، وكان العنف بكافة أشكاله يُمارَس حتى داخل التجمّعات السكانية الّتي تجمعها الروابط الأسرية، وكانت القبائل تبني العلاقات الاجتماعية مع نظيراتها الأخرى عبر المصاهرة، الّتي لم يكن يُقام لها وزن في أوقات الشدّة والحرب.

جاء الإسلام برسالته السمحاء لنشر القيم الأخلاقية في المجتمع العربي الّذي كان يُعاني من التنافر والتمايز والتفكك، فكانت أولى مهمات الرسالة هي العمل على إصلاح الجوانب الاجتماعية والتربوية للمجتمع الجاهلي، حيث قال النبي (ص): "إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وهذا يبيّن أنّ الوظيفة الأساسية لرسول الرحمة كانت نشر القيم الأخلاقية، الّتي ستصبح فيما بعد هي القاعدة والدعامة الّتي سيبنى عليها المجتمع الجديد.

1- التربية في القرآن الكريم:

تضمّن القرآن الكريم كل القواعد التربوية الّتي يحتاجها أيّ مجتمع للنهوض بذاته، والخروج من مشاكله والتخلّص من آفاته، فكانت الجوانب الّتي نصّ عليها تشمل كل النواحي الّتي تتعلق بوجود الإنسان، بدءًا

من تكوين الأسرة والتربية الأسرية والعلاقات الأسرية وكل ما يتعلق بالأسرة، إلى الجوانب الّتي يحتاجها المجتمع في علاقاته الداخلية والخارجية مع المجتمعات الاخرى. وأعطى مساحة واسعة لضبط السلوك البشري وتقويمه وتهذيبه، بما يجعل من كلمة إنسان تنسجم مع المعنى الّذي اشتقت منه.

كانت أهم خصائص القرآن الكريم هي قدرته على مسايرة وتلبية حاجات أيّ واقع اجتماعي، ومواكبة كل تطور يمكن أن يطرأ ويؤثر على سيره وعلى حركته ونموّه. فضبط إيقاع أيّ مجتمع يحتاج إلى مرونة، وخاصة في بدايات مراحل تطوره الأولى، فكانت هذه الميزة من أهم ميزات كتاب الله، الّذي بدأ العلاج بإعطاء الدواء على شكل جرعات لكي يتم استيعابها من دون أيّة ردود أفعال، يمكن لها أن تؤثر على ذاك النمو وعلى ذاك التطور المُرتجى.

إنّ وجود مساحة واسعة من المرونة في الكتاب الكريم، سمحت للفقهاء والمجتهدين بوضع برامج تربوية تطبيقية مستوحاة من القرآن، وبتطبيقها على مراحل مع لحظ الحاجة إلى رصد المستجدات الاجتماعية المرتبطة بالحضارة الحديثة، كذلك بتطبيق القواعد والبرامج بأسلوب لا يؤدي إلى الصدام والتنافر الّذي يُضيّع جوهر ما توصّل إليه أهل الفقه، وحدوث حالة من الرفض من قِبل المجتمع بحجة تخلف الدين ورجعيته.

قال الإمام موسى الصدر: "يحق لنا أن نفهم القرآن بتعمّق أكثر وبخبرة متجددة مع الاستعانة بمعلوماتنا وتجاربنا المتزايدة في مختلف الحقول"[1]، وهذه الرؤية التفسيرية إنّما تظهر وتتجلى في المعالم التربوية الّتي وردت في القرآن.

يرى الصدر أنّ "القرآن الكريم كلام الله بألفاظه وبمعانيه وبترتيب سوره وآياته. وهذا المبدأ هو سبب خلود الإسلام، وهو الجواب على مشكلة التطور، وهي مشكلة شائعة ومستعصية، تعتمد على استحالة توجيه نصوص معيّنة لمجتمعات متطورة، وعلاقات متغيّرة وظروف حياتية تتباين في الفترات المختلفة القائمة في هذا العصر، تختلف تمام الاختلاف عن الأوضاع والعلاقات الّتي كانت في عهد ظهور الإسلام. فكيف يمكن لقوانين ونصوص واحدة أن تنظّم هذه الأمور في الحالتين معًا؟

حاول بعض علماء المسلمين ومفكريهم أن يجيبوا عن هذا السؤال بطرق عديدة"[2].

إن كل كلام يصدر عن أيّ شخص أو جهة أو طرف، يمكن تحميله من التأويل والتفسير طبقا لمستوى ثقافة ووعي وامكانات المتكلّم. فالطفل مثلا لا يمكن تحميل كلامه أي معنى إضافي لأنه لا يكاد يستطيع التعبير عن الأشياء التي يراها أو يحاول التعرّف عليها، بينما الشّخص العادي نستطيع تحميل كلامه مضامينَ تتناسب مع القدرات التي يتمتّع بها، سواء ثقافيّة أو حياتيّة أو غير ذلك.

إنّ صدور الكلام عن القادة والمسؤولين والسياسيين في الخطابات والمحاضرات والجلسات، دائما يخضع إلى التّحليل والتّفسير والتّأويل، لمعرفة المقصد الحقيقي الذي أراده المتكلم من التعابير والألفاظ التي

استخدمها، كأدوات تمكّنه من اللّعب على الكلمات، لإبقاء مساحة يتمكن من خلالها الحصول على المرونة في التطبيق. كذلك الاتفاقات الدوليّة والمعاهدات والإلتزامات، تخضع دائمًا إلى البحث الدقيق حول كل كلمة وردت، وما يمكن أن تحمله هذه الكلمة من تعدد للمعاني والمقاصد، للوصول الى تصور يمكن من خلاله فهم كل ما تحمله هذه النصوص[3].

إن القرآن الكريم بعباراته وألفاظه وخطاباته كان ذا طابع مميّز، ومختلف عن جميع الكتب والكلمات والمصطلحات، كذلك الاختلاف في فهم المعاني التي وردت به، وإمكانيّة التفسير والتأويل لتلك الأيات عن باقي النّصوص، وذلك لأنّه كلام الله الذي لا حدّ له[4]، ولا حدّ للعلم الذي يمكن أن تتضمّنه كل كلمة وكل عبارة وجملة بل وحتى كل حرف، أيّ إنّ مقاصده لا حدود لها ولا لمعانيها لا في مكان ولا في زمان، لأنّ إمكانيّة الاشتقاق والاستحداث والاجتهاد والمطابقة لا متناهية.

إن آيات القرآن الكريم مترابطة ولا يمكن تجزئتها، على الرغم من تقسيم التعاليم الإلهيّة الواردة فيها إلى الثقافة والعقيدة والفقه والأخلاق والتربية... الخ، لذلك نرى في مقدمته الشروط القرآنيّة الإيمان الذي يعتمد على الإخلاص لله سبحانه في النيّة التي يجب أن تكون نتيجة طبيعيّة لهذا الإيمان، كذلك تقلّص النزعات الدافعة للتحرك في النفس البشريّة، الظن والطموح والأمل والكرم والتفاني والإيثار، كلها تستقى من الإيمان بالله سبحانه[5].

ورد في القرآن الكريم أن القاعدة الأولى للتقوى، هي الإيمان بالغيب ثم تأتي الشروط الأخرى، ويتضح من مجمل التعاليم الدينيّة أن الحكم ينطلق من الإيمان بالغيب. والفرق بين الحكم الديني والحكم المدني هو هذا الإيمان الغيبي، وهو الفارق بين العلوم الدينيّة والعلوم الحياتيّة المختلفة. إن هذا الإيمان الغيبي، هو سبب القداسة والخلود والإطلاق، لأن الحاجة الملحّة في ذات الإنسان إلى القضايا الغيبية وإلى الوصول إلى حالة من الطمأنينة والاستقرار على كل صعيد حياتي، إنّما تُلبّى بهذه الصفة. والسبب في ذلك هو أنّ الإنسان يعيش بحالة اضطراب مع ذاته، وترددا في سلوكه وفي مواقفه، بسبب عدم استقرار العلوم الحياتية والقوانين المختلفة[6]، لأنّها من صنع الإنسان وتخضع بشكل دائم إلى التغيير والتبديل وحتى الإلغاء في بعض النواحي، أمّا الإيمان الغيبي فهو ثابت وراسخ ومتطور في سد احتياجات البشر عند كل تطور يطرأ على حياتهم.

إن قول "لا إله إلّا الله" والإيمان بمعنى القول، يؤدي الى تحطيم القيود التي تُغل الإنسان وتمنعه من الانطلاق والتحرك في الحياة، لأن الإيمان بالله يمنح الإنسان هدفًا في الحياة، وينزع طابع القداسة عن الأنظمة السياسية، ويحرر الإنسان من كل الضغوط التي تحول دون وصوله الى المجتمع الاسمى. إن للتوحيد أثرًا بالغًا على الفرد والجماعة[7]، وخاصة على الصعيد الفكري، لأن الإنسان منذ القدم كان يشعر بحاجته الى قوة خارقة توجّه مساره، لذلك

نرى مجتمعات ما قبل التاريخ (ما قبل التدوين) كانت تؤمن بالآلهة المتعددة، وكانت تجعل لكل جانب من جوانب معاشها إلهًا خاصًا به، وقد تطور هذا المفهوم الى وجود إله له القيمية على كل الآلهة، كما عند الفراعنة (رب الأرباب)، لكن كل تلك الأمم كانت تؤمن بفطرتها أن هناك إلهًا ومحركًا واحدًا للكون ولكل تفاصيل الحياة والموت وما بعد الموت، لكن تلك الأقوام لم تكن تعرف صفات لهذا الإله.

إن حاجة الإنسان التي ذكرنا لإله واحد يعتمد عليه في كل شؤونه، تناولها القرآن كجانب تربوي يتعرف الإنسان من خلاله الى صفات هذه القدرة التي ينحدر عنها كل شيء. وهذه القدرة هي الكمال المطلق الذي يدعو البشر إلى التخلّق بأخلاق توصلهم إلى الكمال كما ورد عن النبي (ص) "تخلقوا بأخلاق الله"، فكانت الغاية التربوية من تعليم الإنسان صفات الله، هي سعيه للأخذ من تلك الصفات، ما يجعله بشرًا سويًّا منزّهًا من كل عيب أو نقص.

إن فهم القرآن وتفسيره، اذا روعيت فيه الشروط، لا يعود حكرا على المفسرين الأوائل، بل يحق لنا أن نفهمه بتعمّق وتجدد، بالإعتماد على معلوماتنا وتجاربنا المختلفة في شتى الميادين، لكن يجب الإلتزام بالمصطلحات القرآنيّة، وبالصيغ التي اعتمدت في التفسير، كرد المُتشابه من الآيات الى المُحكم منها، وعدم تحميل المصطلحات معان لا ترتبط بها[8]، إنّ التأمل في القرآن والتعمق في خطاباته وتجديد أسلوب دراسته، يجعل أمام الإنسان معان جديدة تختلف عن ما سبقها من تفاسير مستخرجة منه، مع التأكيد على استخدامها وعدم ردّها بسبب الوصول إلى الجديد، لأنه لا تناقض بينها وبين المجدّدون في التفسير، والسبب أن ما ورد به هو كلام الله سبحانه، الذي يمكن تحميله إلى ما لا نهاية[9].

إن الجانب التربوي في ما ورد، هو زرع الإيمان المطلق بالله وبكلامه العظيم الذي يمكن أن نفهم منه معاني تتجاوز حدود عصر الباحث والمعلومات المتوفرة لديه، وهذا هو الفرق بين كلام الخالق والمخلوق، فمثلا لو طرحنا مسألة تربوية عميقة في الخطاب القرآني، لفهم عمق وتحوُّل وأبعاد الأسلوب الذي اعتمده الله في تربيتنا المجتمعيّة، فمسألة الإنفاق التي وردت بعدة خطابات، وبأساليب مختلفة ومتعدّدة من حيث المواضع، نجد أن هناك حثًّا الهيًّا على هذا الفعل مقابل الجزاء الأخروي، وبالنظر إلى الأبعاد الاجتماعيّة لهذه المسألة، نرى أنّ الإنفاق هو إنعاش حقيقي للعائلات الفقيرة والفئات التي لا تملك مصادر تمكنها من العيش الكريم، وهو بذلك يصبح مصدرا من مصادر الحياة وتوفير المستلزمات التي تستعين بها تلك الأسر في مسيرتها الحياتيّة المعقّدة[10]، وهذا يعني إعادة جزء مهم من المجتمع إلى قلب المجتمع ليشارك في عمليّة البناء. والمنفعة هنا يمكن أن تعود على كلّ أفراد المجتمع بمن فيهم الشّخص الذّي أنفق، ليس على مستوى الانتفاع بالثواب الأخرويّ

بل في الحياة الاقتصادية عبر تدوير الأموال من جديد.

إنّ ترك الإنفاق، يعني ترك مجموعات بشرية قد تكون كبيرة جدا يعانون من آفة الفقر، الّذي قد يؤدي إلى المرض والجهل والتخلف والانعزال عن المجتمع، وعن المشاركة في بنائه وهو على الصعيد الأول حرمان المجتمع من طاقات كبيرة ومتعددة، ثم جعل هذه الطاقات تتحول إلى آفة جديدة يمكنها تدمير المجتمع من خلال لجوئها إلى أعمال وممارسات تشكل خطورة حقيقية تمتد آثارها السلبية إلى سنوات طوال من مستقبل هذا أو ذاك المجتمع.

إنّ الفقر والحرمان والجهل كلّها أسباب تدفع الإنسان إلى اللجوء للإتجار بالممنوعات بما فيها المخدرات، وانتهاج العنف سبيلا في ممارساته اليومية وصولا إلى امتهان الجريمة. إنّ انعكاس هذه القضايا على كل المجتمع، يجعل الجميع فيه معرّضين للأخطار الّتي تنجم عن هذا الانحدار، وصولا إلى تفشي الأمراض وانتشارها حتى تصل إلى الموسعين من أفراده، وبذلك يسبب ترك الإنفاق ضررًا بالغًا على من تركه من أصحاب رؤوس الأموال، مثلما يترك اثارا على المحتاجين والفقراء.

إنّ مسألة الإنفاق الّتي تعرّض لها القرآن الكريم لا تقتصر على إنفاق المال، بل هي مفهوما شاملا يصل إلى العلم والفكر والطاقة والنفس[11]، ويحثّ الإنسان على الاستعانة بكل ما لديه على خدمة المجتمع. والحديث النبوي الشريف الّذي يقول "الخلق كلّهم عيال الله وأحبّهم إليه أنفعهم لعياله"، هو شرح مفصّل لما ورد في القرآن الكريم، بأن جعل القربة من الله ومحبته لعباده يرتبطان بخدمة خلقه كل خلقه من دون تفريق او تمييز. وهذا النهج هو من أهم المناهج التربوية الّتي تدفع الإنسان إلى التفاني في الخدمة والحرص على أدائها على أكمل وجه، دون النظر إلى التعويض المقابل الّذي يُمكن أن يلقاه في حياته، وهو بذلك أي هذا النهج يؤدي إلى خلق حالة اجتماعية مميزة من حيث الترابط والتلاحم والتكامل والتراحم، وهكذا نصل إلى المجتمع المثالي المبني على علاقات اجتماعية متينة.

إنّ الجوانب التربوية في القرآن الكريم لا تنتهي، فهناك مسألة الصيام التي ورد ذكرها في الكتاب ﴿كُتب عليكم الصيام كما كُتب على الّذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾[12]، تُبيّن وجوب الصوم على الإنسان منذ بدء الخلق وإن كان بكيفيات مختلفة، وذلك لما فيه من مصلحة كبيرة للبشر، وهذه المصلحة هي تعليمية وتربوية وأخلاقية وإنسانية واجتماعية واقتصادية. فالصوم يؤدي بالإنسان إلى الترفّع عن الحاجات المادية والابتعاد عن الشهوات البشرية، سعيا للوصول إلى الحالة الروحانية الّتي تجعله بمستوى إنساني أرقى. فهو يقوّي الإرادة، ويفتح الافاق أمام العقل، لينطلق ويغوص في أغوار الموجودات المحيطة به، حتى يتمكّن من إدراك كل ما يحيط به.

من الناحية الاجتماعية، نرى أنّ الناس تتساوى أثناء أداء واجب الصوم، وبالتالي فهي في حالة من المساواة على المستوى النفسي بين جميع فئات المجتمع. وأمّا

الجانب الأخلاقي، فهو يتعلق بضبط سلوك الإنسان وحرصه الشديد على التعاطي بمثالية عالية مع أفراد مجتمعه. وقد قال النبي (ص): "من حسّن فيه خُلُقه (أي شهر رمضان)، كان له جوازا على الصراط"، وهو تأكيد على ضبط الجانب السلوكي للأفراد في تعاملهم.

إنّ الجانب الإنساني للصوم هو شعور الأغنياء بجوع الفقراء، وهذا الجانب يُمكن أن يشمل الناحيتين الإنسانية والاجتماعية معًا، بحيث انّ الغني تتملكه حالة شعورية ونفسيّة عالية تجاه بيئته وحاجاتها، ما يولّد عنده عاطفة تجاه أولئك المحتاجين، وتوجُّه لمساعدتهم ومشاركتهم والوقوف على تفاصيل حاجاتهم، والسعي لسد تلك الحاجات، وهو ما سيؤدّي حتما إلى إعادة توثيق الروابط الاجتماعية الّتي فككتها الفوارق المادية بين أفراد المجتمع.

هناك قضية مهمة جدا أكّد عليها القرآن الكريم، وهي التواضع وقد سبق الحديث عنها في البحث. إنّ التواضع كما قال عنه الإمام علي (ع): "ما وُضع في شيء إلا زانه، وما رُفع من شيء إلا شانه"، إنّ الله سبحانه يريد تربيتنا على أسس تزيل الفوارق بين الناس، لأنّ وجودها يتحول إلى حواجز تحد من تقوية العلاقات الاجتماعية، وبالتالي فقد تؤثر على بناء وتطور المجتمع بسبب امتناع الأفراد عن التعاون مع بعضهم لما فيه مصلحة الجماعة. لذلك نرى أنّ التطور والتقدم هو الثمرة الطبيعية والمنطقية للتعاون، لأنّ الخبرات متنوعة وموزعة ولا يُمكن دمجها والاستفادة من هذا الدمج إلا عبر تنازل أصحابها عن آفة الكِبر الّتي هي ضد التواضع، وهذا الدمج يجب أن يكون ناتجًا من قناعة ليكون تكامليًا وليس شكليًا كما هو في بعض المراكز والمؤسسات الجماعية والعامة. والتكامل ليس فقط على المستويين العلمي والفكري، وإنّما يشمل جميع جوانب الحياة اليومية والمعاشية، وهو مبدأ التعاون الّذي أكّد عليه القرآن الكريم.

من الصور التربوية الّتي رسمها القرآن الكريم أيضا هي ما ورد في سورة الحجرات، حيث قال سبحانه ﴿إنّما المؤمنون أخوة﴾[13]، وهذه الصورة تمثل أبهى وأرقى أنواع العلاقات الإنسانية، لأنّها أعطت للعلاقة طابع العاطفة والمحبة والرحمية، أي إنّ المؤمنين هم أرحام بعضهم، وعلاقات قرابة الدم والنسب إنّما تقوم على العاطفة والمحبة والمؤازرة والتعاون والتضامن والتكامل.

وفي السياق، جاء الحديث النبوي الشريف ليفسّر ما ورد في الآية السابقة عندما قال رسول الله (ص): "المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى"، وهو ما أكّده القرآن الكريم عندما استعمل تعبير البعض عن الفرد (بعضكم من بعض)، أي إن الفرد من مجتمعه كالعضو من الجسد، والجسد لا يصلح ولا يستقيم إلا بجميع أعضائه، وأفراد المجتمع باجتماعهم وانسجامهم وترابطهم وتعاونهم يشكّلون جسدًا واحدًا متناسقا في أقواله وأفعاله وانجازاته.

يُبيّن لنا القرآن الكريم أنّ للإنسان قدرات هائلة لا حدود لها، لكنّها مرتبطة بالإرادة

والعزيمة والتوجّه. فالآية الكريمة الّتي تنصّ على ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[14]، إنّما هي تأكيد على ارتباط إمكانات الإنسان واستخدامها بل واستغلالها برغبته في تحقيق أمر ما مع التوكل على الله سبحانه، وهنا يريد الخالق أن يقول لنا إنّه معنا وسيساعدنا ويقبل دعاءنا إذا قرنّا القول بالعمل، أي أنّ الإنسان الكسول ليس له حظ ولا نصيب، وهذا توجيه تربوي لكل الناس نحو السعي للبناء والنمو والتطور، وهو ما أكّده الإمام جعفر الصادق (ع) عندما قال: "من تساوى يوماه فهو مغبون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان فالموت خير له"[15].

إنّ القرآن يشير إلى تحميل الإنسان رسالة إلهية، لذلك سخّر الله له كل شيء، ومكّنه من كل شيء، وفضّله على كل شيء، فالآية الكريمة تقول ﴿لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[16]. إنّ هذه الكرامة تجعل الإنسان هو المعيار في الحكم على مجمل الأمور، ويمكن الفهم بأنّ الآية تشير أيضا إلى العلم والقدرة الّتي منحها الله للإنسان، والّتي ربما هي السبب في استخلافه في الأرض، لأنّ الخلافة تحتاج إلى الفهم وحسن الإدارة[17]. وهكذا نفهم أنّ الله يشرح لنا في القرآن الكريم أنه عندما حمّلنا رسالته الّتي جعلها لخدمة الإنسان، أعطانا كل الإمكانات والوسائل الّتي تُمكننا من أدائها بالصورة الّتي طلبها منّا، مع التأكيد على الجانب الأخلاقي الّذي لا يُمكن أداء أيّ التزام بمعزل عنه، لأنّه الغاية والوسيلة المؤدية إلى كل شيء.

2- آثار عاشوراء على التربية:

الحسين بن علي (ع) هو ابن رسول الله (ص)، أي إنّه هو الامتداد الطبيعي للرسالة المحمدية الإلهية الّتي أرسلها الله لإصلاح المجتمع وتطويره، وهو الّذي تربّى في كنف رسول الله (ص)، ونشأ في بيته، وتعلم منه وتخلق بأخلاقه، حتى غدا صورة كاملة عنه في الخَلق والخُلق والمنطق، لذلك قال رسول الله (ص): "حسين مني وأنا من حسين"، أي إنّ إكمال الرسالة سيكون على عاتق الحسين (ع)، وأنّ التضحيات الّتي قدمها النبي سيستمر الحسين في تقديم المزيد منها إلى آخر لحظة وحتى النهاية.

لا يُمكن فهم ثورة الحسين (ع)، إلا من خلال التعرّف على شخصيته ومزاياه والإمكانات الروحية والعلمية الكبيرة الّتي تمتع بها. فمن حيث النسب هو ابن رسول الله (ص)، وابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وابن فاطمة البتول سيدة نساء العالمين(ع)، وهو كما قال النبي (ص) إنّه "سيد شباب أهل الجنة"، كذلك فإنّ الاختصاصات الّتي خصّه الله بها لم يختص بها أحدًا غيره، لذلك كانت شخصيته منحصرة بالفرد، ولا يُمكن أن تتكرر لعدم إمكان تكرار ما ذكرنا. إلا أنّه عليه السلام وبالرغم من كل ذلك لم يعتمد على نسبه الشريف، ولا إلى حاله الخاصة الّتي جعلته مقدّمًا على سائر البشر، وإنّما عمل بقول جدّه (ص) لابنته فاطمة (ع) "يا

فاطمة إعملي لنفسك فإنّي لا أغني عنك من الله شيئا".

كان الحسين(ع) وريثًا لأهل بيت النبوة وأمينًا على متابعة الرسالة، وعلى حسن سيرها واستمرارها والحفاظ على جوهرها، وكان صاحب نهج مردّه إلى كتاب الله الكريم، وكان أعلم أهل زمانه بالكتاب والسنّة والسيرة. وفي زمانه كان لزاما على الناس الرجوع إليه في أمور دينهم ودنياهم، لأنّه السيد المقدّم والأمين المؤتمن والوريث الحافظ، وقد شهد العدو قبل الصديق بلين عريكته وجمال طباعه وحسن خُلقه.

كان عليه السلام ينهج نهجًا تربويًّا قرآنيًّا في مجتمعه، فكان يعلّم الناس ويصلحهم من خلال فعله لا قوله، وذلك التزاما بقول الله تعالى ﴿يا أيّها الّذين أمنوا لا تقولوا ما لا تفعلوا، كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلوا﴾[18]، فكانت قضية خدمة المجتمع وإصلاح شؤونه وتربيته وتقويمه وسد احتياجاته والسهر لأجله، محور التكليف الّذي اضطلع به. لأنّه كان يرى أنّ حمل الرسالة ليس وجاهة ولا أبّهة ولا مركزا أو سلطة، بل مسؤولية وخدمة وعملا شاقًا وتضحية وتخلّي عن كل ما هو خاص لأجل الصالح العام، وإنّ العمل بكتاب الله وسنّة نبيّه وتطبيق الأحكام الشرعية، هو قلب الواجب وصميمه ومحوره وغايته.

أمّا حول ثقافة كربلاء فهناك "صورتان تلازمان الشّيعة في الذهن التحليلي العام، وكلتاهما تلتقيان عند اليوم الكربلائي العاشورائي بعد أداء عرض متباين النظر للتاريخ الشّيعي وما فيه من تفاصيل؛ صورة متفاعلة مع الشهادة الحسينية على اختلاف أساليب الأجيال ومستوياتها الثقافية ومدى إدراك أبعاد ذلك اليوم، ويختلف شكل الإدراك بين ممارسة سطحية فيه أو تعميق وعي له. يتمظهر التفاعل بحالات متعددة تؤسس لمفهوم الشهادة وغايات الاستشهاد وأغراضه دون النظر أن كانت الغاية قد تحققت أم كان إجهاض للنهوض، ففي الإسلام إنّ الفعل يستمر في التفاعل، ويأتي فيه من يتابع الطريق، ولا يفقد العقل انعكاساته، فالمحاولة بحد ذاتها نجاح.

أمّا الصورة الأخرى فتتخذ من إحياء الذكرى الحسينية طقوسية حزن موسمية امتدّت إلى يوميات الناس، فوسمت الوجه الشيعي بصبغة غائرة القهر، تنتفض بين حين وآخر ثم تهدأ دون بلوغ الغرض. وما التثقيف المؤدي إلى الشهادة سوى دعوة للموت تناقض مقتضيات الوجود الحي الفاعل. إنّ عملية التأمل في اختلاف الآراء بيوم عاشوراء يوجّهنا إلى أنّ في الشهادة بحد ذاتها سرّ، فحركة التاريخ الشيعي وما تعرّض له الشيعة من تشرد وسبي وقتل على الظن والشبهة، وما قاموا به من معارضة الحكومات الظالمة بوجوه متعددة من طرق المقاومة السريّة أو المواجهة، وإن كانت بعناصر من الشيعة الإثني عشرية أو بالتحالف مع الفرق الّتي كانت قد تشكلت من الرحم الشيعي الإمامي مثل النصيرية والإسماعيلية وغيرها... إنّ استمرار الوجود الشيعي مع كل هذا يؤكّد أنّ الشهادة سرّ "[19].

إنّ محور تاريخ الشّيعة هو قضية كربلاء وكل ما يتعلّق بها، وهم يتعاملون

مع مجمل القضايا من باب هذه الثورة، ومسألة التعمق في فهمها له تأثير كبير على مختلف الجوانب الحياتية والنفسية والاجتماعية والتربوية. لذلك فإنّ كل حركة أو تحرّك شيعي لا يرتبط بالحسين يكون مصيره الفشل، ولو كان إصلاحًا أو مشروعًا تغييريًّا يعتمد على أسس فكرية وعلمية.

أ- صورة المرأة في كربلاء:

إنّ أهم جانب من جوانب ثورة الحسين(ع) بعد الانتفاضة بوجه الظلم، هو الدور الّذي أدّته المرأة والّذي كان مكمّلا للمعركة، بل صوتها الّذي بقي يصدح بتفاصيل ما جرى إلى يومنا هذا. إنّ الحيلة الّتي اعتمدها عبيد الله بن زياد، هي استدراج الحسين إلى قلب الصحراء حيث لا شاهد ولا رقيب، فينفذ الجريمة وتبتلع الرمال آثار المعركة ومن سقط فيها، وتنتهي المسألة عند هذا الحد، وهكذا جرت المعركة وبعد انتهائها راحت الجيوش تطمس آثار الجريمة، من تقطيع للأجساد وحرق للخيام والعمل على إخفاء كل مَعلم يدل على الحدث[20].

عندما تمّ سبي النساء، قامت زينب بنت علي(ع) بشؤون السبايا وحفظهنّ حتى صارت ملاذا لهنّ، وعند وصولهنّ إلى قصر الإمارة في الكوفة ودخولهنّ على عبيد الله بن زياد، وقفت سليلة النبوّة موقفها البطولي الشجاع بوجه الأمير المنتصر المتعجرف، وخاطبته خطابًا أذلّت به المجلس ومن كان فيه، فما كان منه إلّا إعطاء الأوامر بترحيلهنّ. وأثناء الخروج تجمّع الناس لمعرفة القصّة، ومن هم الّذين انتصر عليهم أميرهم، فكانت زينب تردّ على الناس بخطاب فضحت به الخليفة والخلافة ومن تبعهما، حتى قلّبت الناس عليهم.

سار موكب السبايا إلى مدينة الموصل شمال العراق، وعند وصوله تجمّع الناس لمعرفة القصّة، أي كما جرى في مدينة الكوفة، فتحدّثت لهم بنت علي عن تفاصيل ما جرى،وعن هوية القوم الّذين جرت عليهم الواقعة،وهكذا كلما وصلن إلى مدينة، حتى انتشر الخبر في العراق وتركيا وسوريا والبقاع في لبنان، وعلم جميع الناس من هم أصحاب الواقعة، وما جرى عليهم وما هي الأسباب الّتي أوصلتهم إلى هذه النهاية.

إنّ الدور الّذي أدّته السيدة زينب في هذه الثورة، إنّما كان دورا عظيما وكبيرا بسبب إعدادها مسبقا للعب هكذا دور، أي بمعنى تربية البنت على الثقة الكبيرة بالنفس، والقدرة على تحمّل المسؤولية ومواجهة الصعاب مهما بلغت حدودها وتفاصيلها وآثارها. فهي عند استشهاد الحسين (ع)، توجّهت إلى مصرعه، ورفعته وضمتّه إلى صدرها وقالت: اللهم تقبّل منّا هذا القربان، وبعدها أمرت النساء بالتحضّر للمسير الطويل. وهنا لا بدّ من السؤال كيف يُمكن للمرأة أن تفعل كما فعلت بنت علي(ع) وتواجه ما واجهته بكل هذه الصلابة والجرأة والشجاعة؟ وخاصة عند وصول السبايا إلى قصر الخلافة في الشام ودخولهنّ على يزيد، حيث خاطبته بكلماتها الشهيرة الّتي رجّت أركان القصر وزلزلت العرش من تحته وهزّت أركان ملكه بكل ثقة، ورأس الحسين(ع) يقابلها مرفوعًا على الرمح.

إنّ الجواب هو الإعداد والتربية القرآنية الّتي تجعل من المرأة عديلا للرجل ومساويا له في مجمل تفاصيل الحياة. إنّ تعريف المرأة لمكانتها عند الله وفي المجتمع، سيجعلها على قدر تلك المسؤولية الّتي حُمّلت لها من قِبل السماء، لأنّ الله سبحانه أمرها كما أمر الرجل،وإن كان هناك قضايا تحتاج إلى الشرح لإيضاح تلك المساواة.

لا بدّ للمرأة من العودة إلى ثورة الحسين(ع) لتتعرّف إلى دور المرأة المشرق والمشرّف، وإلى تلك السيدة العظيمة الّتي غيّرت معادلات على مستوى الشعوب والأمم، وبيّنت حجم المسؤولية الّتي يمكن للمرأة أن تتحملها، وأظهرت تلك الإمكانات والطاقات الكامنة في النساء، والّتي منحهنّ الله ليصبحن قادرات على القيام بواجبهنّ وبأعباء رسالتهنّ، وهو بذلك أهلهنّ للعب أدوار لا يُمكن للحياة أن تستمر بدونهنّ.

ب- التضحية أبهى صور التربية:

يقول السيد موسى الصدر: أنا لا أؤمن بحسين البكاء[21]، لأنّ تجديد ذكرى ثورة الحسين في كل عام ليست لعرض ما جرى والبكاء عليه سلام الله عليه، ولا على أصحابه وأهل بيته فقط، وإنّما لأخذ العبرة ومقارنة الواقع والتمسّك بالحسين والسير على خطاه في رفع مستوى الإيمان الذاتي بالتضحية لأجل قضية أو رفع ظلم أو مقارعة ظالم، أو إحقاق الحق، لأنّه عند خروجه كان عليه السلام يقول: "ألا ترون أنّ الحق لا يُعمل به، وإنّ الباطل لا يُتناهى عنه". الحسين خرج للإصلاح وللأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خرج ليقول لا للظلم لا للطغيان من أيّ جهة كان، خرج متوكلا على الله ليؤدي واجبه وتكليفه الإنساني والاخلاقي تجاه مجتمعه، ولو كانت النتيجة الوصول إلى القتل، لأنّ الموت أسمى آيات التضحية. وبذلك علّمنا عليه السلام، أنّ الموت فداء للوطن أو الأمة أو القضية أو الإصلاح، هو أعلى مراتب الشرف والكرامة والرفعة، لأنّ الحياة بذلّ هي موت في كلّ ساعة.

إنّ الحسين(ع) ما ترك لنفسه شيئًا،لأنّه قدّم كل شيء؛ ماله وأهله وأطفاله وأبناءه وإخوته وأصحابه وكل ما عنده، وحتى نفسه لم يوفرها. هل يُمكن لأحد أن يظن أنّ الحسين(ع) لا يحبّ أبناءه أو إخوته أو أهل بيته أو أصحابه، وإنّنا نحن نحبّ من ذكرنا أكثر. بعد استشهاد علي الأكبر قال الحسين: "ولدي علي على الدنيا بعدك العفا"، وبعد استشهاد أخيه العباس قال: "الآن انكسر ظهري وقلّة حيلتي"، إذًا حبّ الحسين لذويه أكبر من حبّنا لذوينا، ومع كل هذا فقد قدّمهم للفداء والشهادة[22].

إنّ الحسين(ع) كان يحبّ الحياة، وكان يحب كل النعم الّتي أنعمها الله عليه في الدنيا، لكنّه ضحّى بكل شيء لأجل الدفاع عن الناس، ولأجل إسعاد الناس ولأجل انقاذهم ورفع الظلم عنهم، وإيصالهم إلى حياة كريمة تُحترم فيها كرامة الإنسان ووجوده وإنسانيته. لذلك عندما نريد أن نعبّر عن تمسكنا بالحسين، علينا أن نترك الأمور الّتي حاربها بل ونحاربها، وأن نلتزم بالقضايا الّتي ناضل واستشهد لأجلها، لأنّنا عندما نلتزم نكون في موكب نصرته ومن

انصار ثورته، ومن المساهمين في إثبات انتصاره، ولا يتخيّل أحد أنّ موقفه أصعب من موقف الحسين عندما يريد أن يترك أمرا أو يتحمّل قضية، لأنّ موقف الحسين(ع) ليس كمثله موقف[23].

يجب أن نتعلّم من مدرسة الحسين(ع) كيف نبلغ الخط الحسيني، أي كيف نصل إلى مجدنا وإلى التحسين في حياتنا، وأن نبدأ صفحة جديدة، لأنّنا في هذه المدرسة أمام فصل جديد ووقت جديد وفرصة جديدة من حياتنا، لأنّه بإمكاننا أن نبدأ ونغيّر الاتجاه إلى حيث اتّجه الحسين، ولكي نصل يجب علينا أن نعيش في ذكرياته ونتذكّر ونفكر، ونحزن على سيرتنا وعلى بيوتنا وعلى سهراتنا، لأنّه من الصعب أن يُغيّر الإنسان نفسه إلا إذا تذكّر هذه اللوحات العظيمة من واقعة كربلاء، لأنّ تخيّل ما جرى في ذلك اليوم من فجائع وتضحيات وبذل للمهج، يهزّ الإنسان من أعماقه دفعة واحدة، وقد تغير من قبل في ذكرى عاشوراء أناس كُثر[24].

يجب أن يكون مثلنا الأعلى هو الحسين(ع) لكي لا نقف في مكاننا، لأنّنا إذا تمسّكنا بكل ما عندنا من الراحة والمال والمغريات والملذّات والأمور الدنيوية المختلفة، فإنّنا سنقف في مكاننا عشرات السنين، ولا نتغيّر قيد شعرة. والأمر لا يحتاج إلى كلام فقط، لأنّه يجب وضع نقطة انطلاق جديدة وهدفا جديدا، بدايته إصلاح حياتنا الخاصة والعامة لكي نكسب مجدا وعزّا لنا ولأمتنا، لأنّه من الممكن أن نغيّر الواقع، لأنّ الحياة الّتي نعيشها بالذل والأحقاد والمصائب وانتظار ما يقرره لنا الآخرون، هي موت للإنسان، لأنّنا بقدر ما نكون متمسكين بالحسين نستطيع أن نصل إلى الإصلاح والتغيير والسعادة[25].

إنّ الجانب التربوي لهذه الثورة الحسينية، هو الاقتداء بالحسين(ع)، لأنّ مدرسة كربلاء في هذا الجانب تمثّل الخط الإصلاحي الّذي جاء به القرآن، وتبيّن التأثير الحقيقي للمفاهيم الدينية في شخصية الإنسان ومدى تفاعله معها، وصولا إلى بذل النفس في سبيل خدمة المجتمع اتقاء مرضاة الله. ومن ناحية أخرى، لو افترضنا أنّ ما جاء به القرآن كان نظريًّا، فإنّ كربلاء هي الجانب التطبيقي إلى أبعد حدود التطبيق لهذه القواعد النظرية. إنّ الفكر لا يسمو إلّا بالالتزام والممارسة، وإلّا فإنّه سيبقى غير مفهوم في بعض مدلولاته.

كان الحسين(ع) أثناء المعركة شديد الالتزام بأحكام الله سبحانه، فبالرغم من شدّة الموقف وضراوة القتال وشدّة الانفعال والحزن على الأبناء والأصحاب، كان دقيقا في التقيّد بالشريعة الإلهية وبالتعاليم الإسلامية، فحتى الّذين قتلوا أبناءه، عندما كان يقاتلهم كان يترك من جُرح منهم ولا يجهز عليه انسجاما مع مبادئه الإيمانية وتطبيقا للتعاليم الدينية، وكان يدعو أثناء المعركة حتى القتلة إلى التوبة والرجوع إلى خط الله، وهذا دليل على أنّه شخص رسالي يحمل رسالة، ويضحّي لأجل نشرها وتعميمها.

إنّ الحفاظ على القيم ونقلها من جيل إلى جيل، هو من أهم واجبات التربية، لأنّ

المجتمعات الّتي لا تُبنى على القيم لا يُمكن لها أن تنهض وتستمر وتتقدم. إنّ تجديد الذكرى السنوية لثورة كربلاء، هو بمثابة نقل وترسيخ لتلك القيم الّتي ضحّى لأجلها الإمام الحسين(ع)، فهي تنتقل إلى الأجيال عبر هذه المناسبة الأليمة الّتي تهيّج الشعور وتهز الضمائر، فمن قيم كربلاء استقام المجتمع واصطلحت الأجيال وهدئة النفوس واشتدّت العزائم، وأبت النفوس وأحصنت الحرائر.

إنّ لثورة الحسين(ع) الفضل الأكبر في تحفيز الناس على التحرّك تجاه قضايا مجتمعاتهم وقضايا أمّتهم، فهي أحيت الضمائر الّتي غيّبتها المادية، وهزّت المشاعر تجاه العلاقات الإنسانية، ودفعت المجتمع نحو التكافل والتضامن، وجمعت بين الطبقات الاجتماعية، وأذابت الخلافات السلوكية، وكان تأثيرها واضحا على الجوانب النفسية والفكرية للفرد والجماعة.

إنّ التمسك بأهداف ثورة الحسين (ع) هو من أهم الجوانب التربوية. فكلّما تمسّكنا بهذه الأهداف كلّما نكون قد اقتربنا أكثر من الحسين، وكلّما نكون قد سعينا إلى ترسيخ مبادىء ثورته في مجتمعنا، وكلّما نكون ساهمنا في إنجاح الثورة الحسينية. لأنّ هذه الانتفاضة لم يشعلها لأجل قضايا آنية ومرحلية، إنّما هي مستقبلية لأنّها عاشت على مر العصور والأزمنة، وتحت أقصى الظروف والضغوطات والصعوبات، لأنّها صادقة ومخلصة ومؤمنة، ولأنّها كذلك وجب على البشر كل البشر عدم تطيفها وتقزيمها، لكي تبقى منارة الشعوب في مُثُلها وقيمها وتحركها وماضيها وحاضرها ومستقبلها.

3- مكانة الإنسان:

إنّ أولى خطوات التربية هي تثقيف المجتمع حول مكانة الإنسان عند الله سبحانه، وعن الدور الّذي كلفه به. فالإنسان هو أشرف المخلوقات وأفضلها، لأنّ الله خلقه بيده ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وأعطاه من العلم ما لم يعطيه لأي من مخلوقاته ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها﴾[26].

"إنّ الخطوة الأولى في طريق تربية الإنسان ورفع مستواه في جميع حقول التكامل، هي في جعله يشعر بكرامته، ويهتم بشؤون نفسه، وإلّا فسوف لا يولي لنفسه أيّ اهتمام، ولا يبذل لإصلاح وضعه أيّ نشاط، مهملا حاضره ومستقبله وحتى ماضيه، فنفقد في هذه الحالة إمكانية إقناعه بالسعي والعمل، وإمكانية التأثير عليه في دعوته لتحسين أموره وأوضاعه، والتحرّك نحو الافضل، ويبقى خاملا جامدا لا مباليا، مفضّلا استمراره في وضعه على تحمّل عناء الحركة وأعباء السعي والنشاط"[27].

إنّ غريزة حبّ الإنسان لنفسه ثابتة، وهي تفرض عليه الدفاع عنها والسعي لجلب الخير لها، وهي القوة الدافعة له، حيث يرتبط نشاطها بمستوى الوعي البشري، ولكن الشعور بالكرامة هو الشيء الوحيد الّذي يُحدد مقام الإنسان، ويوجّه مسيره ويُعيّن أهدافه. إنّ تعليم آدم(ع) الّذي ورد في القرآن الكريم، يعكس في الذهن إمكانات الإنسان الهائلة، وتمكّنه من معرفة

جميع الموجودات والقوى الفاعلة من حوله، وقد أعطاه الله سبحانه بنص كتابه طاقات عديدة هي أقصى حدود التكريم، كالاستقلال في التصرّف، وخضوع كل شيء له(28). لقد أُعطي الإنسان ميزة خاصة وهي قدرته على التعلُّم والمعرفة، وقد أكّد الله ورسوله على هذه الميزة، لما لها من دور في رفع معنويات الإنسان وشعوره بمقامه الكريم، وبتفضيله على سائر المخلوقات.

إنّ الله سبحانه خلق الإنسان ليعمل، وأعطاه كل تلك الإمكانات لتساعده على أداء الأمانة الّتي حملها باختياره، لأنّه من خلال التعلُّم يمكنه أن يدرس جميع الظواهر المحيطة به، وكيفية التعامل معها، واستغلالها وتسخيرها لمصلحته. ولكن مع كل هذا وذاك لا يستطيع انجاز أيّ شيء دون التعاون، وهذا التعاون يعتمد على الاعتراف بالآخر واحترامه، ونسج أرقى العلاقات الإنسانية معه الّتي تحفزّه على التضحية والعطاء. لذلك فإنّ وجود الإنسان هو وجود رساليّ يهدف إلى نشر رسالة السماء الّتي تدعو إلى المحبة والأخوّة والسلام والخير بكافة أشكاله لجميع بني البشر.

4- دور المرأة:

ينبغي لنا لتكوين صورة عن المرأة، أن نبحث في الدور الّذي أعطاها إيّاه القرآن الكريم والصورة الّتي رسمها لها، فكتاب الله جعل من المرأة لباسا للرجل ومكمّلا له، بحيث أنّه جعل استمراره وعطاءه في هذه الدنيا مرتبطا ارتباطا مباشرا بها. أمّا الصورة الأخرى، فقد جعلت المرأة مساوية للرجل، بل ومتقدمة عليه في حالات ربطها الله بالتقوى فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾(29). وهذه المفاضلة كانت بمثابة انقلابا ثوريا على المفاهيم الّتي كانت هي الدستور، الّذي تقوم عليه المجتمعات.

كانت المجتمعات القديمة تنظر إلى المرأة على أنها السبب في إخراج آدم(ع) من الجنّة، وبالتالي فإنّ هذا الأمر أدّى إلى إهانة وذل المرأة الّتي اعتُبرت رأس الخطيئة وسببها. وهنا جاء التدخّل القرآني ليوضّح للناس أنّ الشيطان هو أصل الخطايا، وهو السبب في إخراج آدم وحواء من الجنّة، فقال: ﴿فأزلّهما الشيطان﴾ أي أنّه خدع الإثنين معا، فكانا بذلك متساويين في الفعل والنتاج.

يقول الإمام موسى الصدر: إنّ الإسلام كرّم المرأة، والمسلمون أهانوها(30)، لأنّ وضع المرأة في بداية الدعوة كان أفضل بكثير مما هو عليه الآن، والحل هو العودة إلى المنابع الأساسية والصافية للدين الإسلامي القويم، لأنّ ما من دين ولا من مجتمع أعطى المرأة حقوقا وكرامة كما أعطاها الإسلام(31).

إنّ الإسلام لم يجعل وصاية لأحد على المرأة، سوى الأب حتى بلوغ سن الرشد، وله حق استشاري مقدّس في مسألة زواج ابنته. وأمّا الأخ وباقي الأقارب، فليس لهم عليها أيّ وصاية أو سلطة، وهي مساوية لأخيها في أسرتها(32). وفيما يتعلّق بالزوج، فيمكن للمرأة أن تُضمّن عقد زواجها شروطا، يوجب الإسلام على الزوج الالتزام بها إذا

وافق عليها أثناء إجراء العقد، وليس له إلزام زوجته القيام بأعمال الخدمة في المنزل، إلّا إذا كانت هي راضية بذلك، بل وأشار الإسلام أيضا إلى مسألة إرضاع الطفل، بأنّ الأم غير مُلزمة بإرضاع طفلها وعلى الوالد استئجار مرضعة لولده في حال رفضت الأم إرضاعه.

أمّا مسألة القيمية الأسرية الّتي هي من حق الزوج، فيشبّه الإمام الصدر الزواج الديني بالمؤسسة الديمقراطية المصغّرة، الّتي يحقّ للزوجين تحديد صلاحية كل واحد منهما حسب اتفاقية مسبقة، لكن لكي لا تصل الديمقراطية إلى طريق مسدود، وجب إيجاد رئيس لهذه المؤسسة المصغّرة(33).

إنّ حجاب المرأة سلاح يمنع طغيان الجانب الأنثوي فيها، وإبراز المفاتن الّتي تطغى على كفاءاتها، وتحرمها من المزايا الكثيرة الّتي تتمتع بها(34). لأنّها تمتلك كفاءات كبيرة بعضها تفوق الرجل، وخاصة الّتي تتمثّل في الجانب العاطفي، وإنّ إلهاءها في التبرّج ووضع الزينة، قد يستهلك معظم وقتها، ما يؤدّي إلى عدم توفّر الوقت اللازم لتحقيق الإنجازات الّتي تجعلها متساوية مع الرجل في ميادين الحياة.

أثبتت المرأة من خلال مشاركتها في ميادين الحياة أنّها كفؤ وعديل للرجل، فالنجاحات الّتي حققتها في الجوانب العلمية والعملية العامة، كانت دليلا واضحا على قدرتها في تحمّل المسؤولية، إضافة إلى مسؤوليتها الكبيرة والعظيمة الّتي تمثّلت في حضانة الاسرة وتربيتها ورعايتها. إنّ الدور الأسري الّذي أوكله لله سبحانه للمرأة، لم يكن عازلا لمشاركتها ولا لمساهمتها في بناء المجتمع وتطويره عبر نزولها إلى سوق العمل والإنتاج، لكنّه اعتبر أنّ العائلة هي محور المجتمع وجوهره، بل وهي الهدف والغاية لكل عمل حضاري وإنساني، لذلك جعل القداسة الأولى والواجب الأول لهذا الجانب الّذي اعتبره استمرارا للوجود البشري(35).

إنّ الدور الّذي أعطاه المجتمع للمرأة في عصرنا الحالي، جعل منها سلعة في معظم الميادين، لأنّه جعل هذا الدور يعتمد على أنوثتها فقط، دون النظر إلى الجانب الإنساني والعلمي وإلى المؤهلات الّتي تتمتع بها، مرجّحا مقياس الجمال على المقاييس الأخرى. إنّ المرأة ليست كذلك، فلقد قال الإمام علي(ع): "وما الجمال إلّا جمال الدين والأدب"، ولعل المقصود بالدين هنا، هو الالتزام والإخلاص والتضحية. وقال عليه السلام أيضا: "المرأة ريحانة وليست بكهرمانة"، أي أنّه أعطاها أجمل وأرقّ صفة عندما جعلها ريحانة القلب وسيدته، ونفى عنها صفة الخادمة الّتي تطغى على دورها ووظيفتها في مجتمعنا.

5- الدور التربوي للأسرة:

إنّ الإسلام يفرض على الوالدين رعاية الأولاد وحضانتهم والولاية عليهم، لأنّ عملية التربية تعادل رسالة الإنسان في حياته. "إنّ الوالدين اللذين يقومان بدورهما بصورة رسالية وإلى درجة مطلقة وإلى درجة التفاني في خدمة الطفل، يغمران مشاعر الطفل ويملأن عقله إيمانا وقلبه حبّا ووجوده رعاية. ويعيش الطفل وينمو في هذا البحر

المتدفّق مؤمنا مكمّلا لرسالة والديه ووفيًا لعطائهما ولجيلهما. لأنّ الطفل الّذي يتربى على أساس الإيمان لا ينحرف بسهولة، وللأم الدور الأول في تربية الطفل"[36].

إنّ الأسرة هي نواة المجتمع البشري، وهي تتفاعل معه وتتأثر به ويتأثّر بها، لأنّها جزء لا يتجزأ منه، وبالتالي فإنّ جميع أهدافها سوف تنعكس عليه سلبا أو إيجابا، وذلك بحسب النتاج الّذي وصلت إليه عن طريق التربية والتلقين. وأمّا المجتمع فسوف يؤثّر عليها بجميع وسائله سواء كانت متقدّمة أو متخلّفة، لأنّه مصدر من مصادرها، وهو الوعاء الّذي يحتضنها بجميع جوانبها وتتقولب بداخله. ولذلك تُعتبر العلاقة بينهما من أكثر العلاقات تعقيدا في الوجود، ومن هنا يأتي التأكيد والحرص الشديدين على دورها في مجال تربية الأطفال الّذين سيكونون هم المجتمع.

إنّ المرأة هي عماد الأسرة في كل المجتمعات، ودورها لا يُمكن أن يقابله دور، أو أن يقوم به أحد غيرها، لأنّها النافذة الأولى للطفل على العالم، وهي العين الّتي يختبر بها الوجود، وكما تزرع الأم يحصد المجتمع، وهذا هو معنى "الأم الّتي تهز السرير بيمينها تهزّ العالم بيسارها".

إنّ الإمام الصدر لا يرفض خروج المرأة إلى ميدان العمل، لكنّه لا يحبّذه إذا تعارض مع دورها التربوي[37]، لأنّ تقصيرها في هذا الواجب سوف يعرّض المجتمع إلى أخطار الإنفلات الأسري، وترك المستقبل أمام المجهول، وهو سيولّد جيلا جديدا تربى على نقص في المبادىء والقيم والأخلاق والمُثُل. وللأب دور لا يقل شأنا عن دور الأم في التربية، لأنّ دوره لا يقتصر على الانفاق، وعليه القيام بواجب التوعية والرعاية والتوجيه.

إنّ التربية البديلة عن تربية الوالدين ستؤدّي إلى تقليص مقام الوالدين، ومقام الوجود كلّه في نظر الطفل وفي مشاعره، وسوف تهتز العلاقات الأسرية والروابط الّتي تربط الأجيال. إنّ "الترابط العاطفي القلبي إلى جانب التغاير الأخلاقي هو الّذي يجعل الأطفال مكمّلين لدور الأباء، إنّهم مجددون ولكنّهم يشكلون استمرارا لوجود الأجيال السابقة"[38].

6- التربية المجتمعية:

ألقى الإمام الصدر عشرات الخطب والمحاضرات في التربية، لما لهذا الجانب من دور في رفع كفاءة المجتمع وضبطه وتهذيبه. فكان يصف أوضاع مجتمعنا بأنّها غير مرضية من جميع النواحي العائلية والاجتماعية والوطنية، وكان يطرح الأسئلة التالية: هل نحن أقل شأنا من الأمم الّتي حولنا؟ ولماذا تمكّنوا من بلوغ درجات عالية في جميع جوانب حياتهم؟ ولماذا يعيشون حياة عائلية سعيدة؟ وهل نحن نختلف في جنسنا وعنصرنا عن باقي الشعوب؟ ثم يُجيب بأنّنا لا نؤمن بأنّ هناك فرقًا بين البشر، وقد قال رسول الله(ص): "الناس سواسية كأسنان المشط"، وبمقدور كل الناس العمل والوصول إلى حياة متقدمة وكريمة، لأنّ الجميع هم عباد الله ومتساوون أمام الله[39].

إذا جميع الخلق متساوون، فلماذا مجتمعاتنا متخلّفة وبلادنا متأخّرة؟ إنّ هذه

التساؤلات قد تقود بعض الّذين يتعمّقون بها إلى التشكيك بأنّ الدين هو السبب، لذلك يجب أن ندرس هذا الجانب لعلّنا نصل إلى النتيجة الّتي نبحث عنها ولو بشكل جزئيّ، وهنا علينا التوجّه إلى دراسة سيرة الإمام علي والسيّدة فاطمة(ع)، وعن الأسباب الّتي أوصلتهما إلى هذا المستوى، وإلى ذاك الشأن الّذي بلغاه[40].

إنّ العمل هو سبب وجود الإنسان وهو شرفه، "والعمل هو ربط الإنسان بالكون أو بتعبير تفصيلي، العمل هو خالق الحضارات والثقافات"[41]، وفي سيرة الزهراء (ع) أنّها أصبحت سيدة نساء العالمين بسبب عملها، وعدم اتكالها على نسبها الشريف في الوصول إلى الدرجات العالية. والنبي محمد (ص) كان يربّي ابنته ويحفّزها على العمل وعلى بذل الجهد الشخصي فيقول (ص): "يا فاطمة اعملي لنفسك، فإنّي لا أغني عنك من الله شيئا". إنّ الإنسان الّذي لا يتمكّن من تعلّم شيء هو عاجز عن فعل أيّ شيء[42]، أي إنّ العمل يحتاج إلى سعي لتعلّمه حتى ينجح[43].

إنّ سبب كل ما وصلنا إليه هو الاتكالية والاعتماد على الغير، لأنّنا لا نريد أن نحمّل أنفسنا مشقّة العمل، بدءا من العائلة الصغيرة وشكوى الأهل من فساد أبنائهم وسوء أخلاقهم، والأب دائما يُحمّل زوجته مسؤولية هذا الواقع، مُعتبرا أنّ التعليم والتربية والتهذيب هو على عاتقها وحدها، دون تحميل نفسه أيّة مسؤوليه تجاه عائلته. ومنهم من يُحمّل المدرسة ويُلقي عليها تُهم التقصير، ومنهم من يعتبر أنّ البيئة فاسدة، بل الكون كلّه فاسد إلّا هو الطيّب الصالح والمضحّي، دون أن يسأل نفسه هل هو مقصّر أم لا؟ هل هو السبب في ما وصلت إليه العائلة أم لا؟ هل يُعطي أولاده وبيته الوقت الكافي للرعاية والتربية والتوجيه أم لا؟ أم أنّه يفضّل قضاء الوقت في لهوه وملذّاته ولو على حساب إصلاح عائلته وأطفاله، مُحمّلا الزوجة كل المسؤولية والأعباء الّتي قد ينوء بحملها هو نفسه[44].

إنّ الطفل يرى بعيون أمّه ويسمع بأذنيها، ويختبر الحياة من خلالها، وتتشكل بداية شخصيته انسجاما معها، وتتكوّن مفاهيمه الأولى بالاعتماد عليها[45]. فدور الأم المطلق عبر التفاني في الرعاية والعطاء لوليدها هو المحور الّذي يرسم مستقبل المجتمعات وتوجّهاتها. والأب الّذي هو عماد الأسرة، لا يُمكن اقتصار دوره على الإنفاق وترك مسؤوليته الأساسية والواجبة تجاه أسرته ملقاة على عاتق الأم، حيث أنّ واجباته تتعدى ذلك بكثير من حيث تواجده في البيت بالحد المطلوب، ومسؤوليته في الرعاية والتوجيه والإرشاد والإصلاح والعطف وحنان الأبوّة الّذي يُعدّ أهم مصادر تكوين شخصية الطفل الأولية.

خاطب الإمام الصدر أفراد المجتمع محمّلا إيّاهم قسما كبيرا من أسباب الحالة الّتي يشكون منها، فمسألة الخلافات الاجتماعية المستشرية بينهم، بسبب إصرار كل واحد منهم بأنّ الحق معه وهو على الطرف الآخر، دون الرجوع إلى المراجعة والتدقيق في وقوف كل واحد منهم على أخطائه والاعتراف بها، لأنّه يعتبر نفسه

قامة كبيرة أكبر من الّذي تخاصم معه[46].

وقد ذهب الصدر في توجيهاته الاجتماعية إلى التطرّق للنظافة العامة، الّتي يبدأ الفرد بممارستها في البيت والشارع وكل مكان، وتأثّر أولاده وباقي أفراد المجتمع في سلوكه، ودور كل إنسان في ممارسة التربية من خلال سلوكه وتأثُّر الآخرين به سلبا أو إيجابا.

إنّ مسألة التعليق على أفعال الآخرين وابتلاء المجتمع بهذه الآفة، حوّل عددا كبيرا من أفراد المجتمع عن الفعل والعمل إلى التعليق والثرثرة، فحُرم الناس من دورهم الفاعل، وامتنع القسم الفاعل عن العمل بسبب انتقادهم له وتعليقاتهم عليه[47]. وهنا تأتي الدعوة لهؤلاء بالبدء بإصلاح انفسهم، عبر النظر إلى حالهم في القضايا الّتي يريدون التعليق فيها على الآخرين، فيحوّلون النقص الّذي يرونه في أفعال الآخرين إلى مرآة يرون من خلالها العيوب نفسها التي ينطوون عليها، فيعملون على البدء بالتغيير، ابتداء من أنفسهم، عبر القيام بالعمل المُنتقد بالشكل الّذي يرونه صحيحا، وبذلك نكون قد وجّهنا رسالة عملية في الإصلاح، بدل مضيعة الوقت في التعليق.

7- التغيير:

الإسلام هو ثوري في الأهداف لا في الطريق، والسبب هو أنّ الثورة في الأهداف هي الوصول إلى التغيير في بنية المجتمع، بينما كطريق تعني الوصول السريع ولو عن طريق العنف والقوّة، والإسلام لا يحصر الطريق في العنف[48]. إنّ مفهوم الجهاد الّذي جاء به الإسلام كتحضير وشمول واستمرار، يجعل المجتمع في حالة تجدد مستمرّة، لأنّه متعدد الجوانب ولا ينحصر معناه في القتال فقط، بل القتال هو الجزء الأيسر منه، وذلك بسبب اشتماله على جانب الإصلاح والتربية الّذي يُعتبر أهم أهدافه.

يقول الإمام الصدر: "نحن بأعصاب هادئة بإذن الله نستعين بالصبر والصلاة ونتهيأ للمستقبل، إذا ربّنا أنعم علينا بمعالجة الحاضر لنا الشرف، وإلا فلنستعد للمستقبل"[49]. إنّ الإنسان في طبيعته التكوينية يسعى دائما للوصول إلى الكمال، وهذا الكمال يعني اللانهاية في الطموح، والاستمرار في التقدّم والرقي والازدهار، فهو دائما يريد أن يكون الأفضل هو وبيته وعائلته وكل ما حوله، وهنا ندخل إلى تربية هذا الإنسان وثقافته، فكلّما كانت تربيته وثقافته أفضل، كلّما اتّسعت آفاقه وتوجّه للعمل من رؤية أوسع تشمل المجتمع، وأحيانا قد تمتد إلى أوسع من وطنه بكثير في سعيه نحو الأفضل، تطابقا مع هذه الرؤية الّتي تكوّنت عنده منذ نعومة أظافره.

إنّ الإنسان أمام واقعه يسلك طريقا من إحدى هذه الطرق:

أولا: الإستسلام للواقع، بحيث يصبح المجتمع عنده بابا من أبواب المكاسب، وفي هذه الحالة يأخذ ولا يُعطي. وأمّا ان يستسلم تحت عنوان أنّه هذا قدره وتلك هي إرادة الله، وذلك بسبب التربية البيتية والمجتمعية باعتماد القدرية تجاه الضعف الّذي ينتج عن الكسل.

ثانيًا: الهجرة الّتي تنتج عن سخط الإنسان على مجتمعه ومحيطه وبلده، وعدم تمكّنه من التغيير، فيهاجر إلى بلاد أخرى

باحثا عن مجتمع يلبّي طموحه وينسجم مع رؤيته، ويُعبّر عن تطلعاته. أو يتعاطى نوعا من أنواع المخدرات أو المسكرات ليغيب عن الواقع، أو يقتصر في علاقاته على عدد قليل من الأشخاص، ويؤلّف معهم مجتمعا صغيرا منسجما ومترابطا وبعيدا في قضاياه من مشاكل المجتمع.

ثالثًا: المواجهة، وهنا الإنسان لا يهرب ولا يستسلم، لكن يبحث عن وسيلة تُمكّنه من تغيير واقعه، فيستورد أفكارا وأساليبَ وأيديولوجيات يعتمد عليها في الوصول إلى التغيير، كالشيوعية أو الرأسمالية وغير ذلك مما هو سائد في عصره[50].

إذا كنّا نرفض حال مجتمعنا، ونبحث عن التغيير، ولا نهرب ولا نعترف بالعجز والإفلاس، فذلك لأنّنا نؤمن بأنّ الإسلام هو الباب الأفضل والأوسع للوصول إلى التغيير، كما المسيحية في وسائلها الّتي جاء بها السيّد المسيح(ع). فنحن نمتلك فكرا عميقا ووسائل فعّالة استُعملت في السابق، وكانت لها نتائج مُبهرة وآثار عظيمة، أدّت إلى تحويل المجتمع من جاهلي إلى مجتمع يؤمن بقدراته الكبيرة وواجباته العظيمة، والدور المُلقى على عاتقه في نشر الحضارة والقيم، والوصول بباقي المجتمعات إلى المدينة الفاضلة.

إنّ التغيير يجب أن يبدأ في نفوس المواطنين أولا، قبل أن يبدأ في القوانين والأنظمة، لأنّ ما ورد في القرآن الكريم ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[51] هو قاعدة ربانية، وباب واسع لإصلاح حقيقيّ، يؤدي إلى نهوض المجتمع وارتقائه، وتحوّله عن آفاته نحو الكمال. إنّ التغيير لا يعني التبديل المطلق، وإنّما يعني التطوير الّذي يحتاجه الإنسان في مختلف مراحل حياته. فمثلا "لو انتقلنا بحياتنا الكريمة المتقدّمة المتحضّرة إلى حياة أفضل ومستوى أرقى، ووصلنا إلى عيش أشمل، فهل هذا يعني أن نتوقف عند هذا الحد؟ الجواب حتما لا، لأنّ البشر يطمحون دائما إلى مزيد من الرقي وأسباب الرخاء المعيشي والفكري والثقافي والعلمي بكل نواحي حياتهم"[52].

لقد خُلق الإنسان للعمل الّذي يُعبّر عنه بالبناء، والّذي هو هدف من أهداف وجوده على الأرض، وهذا البناء غير محدد الجوانب والأفاق، لأنّ جميع جوانب حياة البشر هي بحاجة مستمرّة إلى الإصلاح والتربية والتهذيب. فالإنسان هو مخلوق لا متناهي الطموح، ويمكن لطموحه أن يقوده لفعل أيّ شيء إرضاء لنزواته الخاصّة، ولو على حساب باقي المخلوقات. لذلك جاءت الأديان لضبط إيقاع حركته ولتحريره من شيطان نفسه كما عبّر القرآن الكريم، كذلك لتقويمه وتصويبه ليشارك في عملية بناء الحضارة، الّتي هي مرآة المستوى الّذي وصل إليه.

8- تأثير العلمنة والعولمة على مفهوم التربية:

إنّ العلمانية كمصطلح، تعني فصل الدين عن الدولة، وعدم ارتباط القوانين الّتي تُنظّم علاقات المواطنين بالأحكام الدينية. والسبب المباشر لإطلاق هذا المصطلح، هو الممارسات الّتي كانت تنتهجها الكنيسة في أوروبا تجاه رعاياها، والمبالغ المادية

الكبيرة الّتي كانت تفرضها على أتباعها الفقراء باسم الدين. والعولمة، هي جعل العالم كلّه قرية كونية واحدة، وهي الوعاء الّذي يحتضن العلمنة وغيرها.

خطّت العلمانية لنفسها خطًا فكريًا وثقافيا وتربويا واقتصاديا وسياسيا واجتماعيا خاصاً مقابل الدين وكبديل منه، في تحرير المجتمعات وتنظيمها ووضع الحلول الملائمة لمشاكلها، وراحت تنتشر بسرعة كبيرة، بسبب القبول الّذي تمتّعت به الأساليب الّتي انتهجتها.

انتشرت العلمانية في المشرق، كانتشار النار في الهشيم، ما جعل رجال الدين وعدد من المفكرين الشرقيين يشعرون بخطورتها على مجتمعاتنا الّتي تعاني أصلا من الضياع الفكري والثقافي، بسبب الاحتلالات الّتي تعرّضت لها على مر التاريخ. سعى المروّجون للعلمانية إلى تقديمها في البلاد العربية كبديل من الدين، لقدرتها على إيجاد الحلول للمشاكل الّتي تعاني منها مجتمعاتنا، ما جعل الأعداد الكبيرة من جيل الشباب يندفع وراءها بشكل عفوي، مناديا باعتمادها كنظام بديل من الأنظمة الموجودة في بلادنا، وهذه كانت إحدى تداعياتها، لأنّها أدّت في مجتمعات أخرى إلى تغيير عادات الناس وأنماط عيشهم وتفكيرهم[53].

إنّ انتشار العولمة في مجتمعنا أقلق الإمام موسى الصدر، ودفعه إلى مواجهتها عن طريق تكثيف المحاضرات التربوية الّتي كان يلقيها على جيل الشباب وخاصة في المدارس والجامعات، فكان يُعرّف العولمة على أنها "إطار اجتماعي، وليست نظاما، وقد تكون صفة لنظام ديمقراطي أو لشخص ديكتاتور"[54]، وكان يشرح أسباب نشأتها وأبعادها، وقصورها في معالجة قضايا مجتمعنا. لأنّ القضايا الّتي عالجتها هي مشاكل المجتمعات الأخرى الّتي لا تتشابه معنا بشيء[55].

لا يُمكن للعولمة أن تنسجم مع عاداتنا وأعرافنا وتقاليدنا وأنماط عيشنا، فهي لا تستطيع معالجة حتى قضية تغلّب القوي على الضعيف، وإنّ تسلطها على مجتمعنا سوف يفقده الرصيد الروحي الّذي يملكه، وهي كإطار اجتماعي ستتمكن من القضاء على الصفة الإنسانية في الإنسان[56]. إنّ أخطر جانب للعولمة، هو الجانب الثقافي، لأنّه إطار واسع يتلاقى فيه الجميع، وهو لا يقدّم نفسه كمشروع منافس للمناهج السائدة، ولكن النتائج المترتّبة يمكن لها أن تُغيّر حضارات بأسرها[57].

إنّ للمجتمعات الشرقية أنماطا حياتية خاصة بها، فالجانب الثقافي له خصائصه الّتي تميّزه عن باقي المجتمعات، ومفهوم التربية الشرقية امتاز بمفاهيمه الّتي ترتكز على تنمية الاحترام عند التنشئة، بحيث تُصبح شخصية الفرد صورة من صور المجتمع.

9- المجتمع الأفضل عند الإمام موسى الصدر:

يتساءل الإمام الصدر عن كيفية بناء مجتمعنا، وعن المواصفات المطلوبة لمجتمعنا، وعن العوامل الّتي تؤثّر في أوضاع مجتمعنا؟ ثم يُجيب بأنّ المجتمع يعني الإنسان والعلاقات المتبادلة بين الأفراد،

بحيث لا يمكن أن يكون هناك مجتمع إذا لم يكن هناك تفاعل وتبادل للعلاقات بين أعضائه، لأنّه يتشكّل من مجموعة من الافراد الّذين يجمعهم العمل المتبادل.

يعيش الإنسان في مرحلتين، هما: المرحلة الفردية والمرحلة الجماعية، والمجتمع يتشكّل بواسطة الإنسان ولأجله، لذلك يُطرح السؤال أنّه كيف يُمكن أن نعطي للمجتمع شكلا إنسانيا؟ ويجيب الإمام الصدر بأنّ الإنسان يمتلك حرية التصرّف ولو نسبيا، وهو بهذا يختلف عن باقي المخلوقات، لأنّه يتصرّف عن إرادة وتفكير، والبُعد الآخر له هو المجتمع[58].

إنّ تكوين مجتمع إنساني هو بحاجة إلى البعدين المذكورين سابقا، وعندما نريد أن نبني مجتمعا إنسانيا، فنحن بحاجة إلى الإنسان مضافا إليه التبادل والتفاعل بين أفراده، على أساس أنّ العمل هو الركن الأساسي للمجتمع. والعمل يُمكن تقسيمه إلى نوعين: الأول مقابل أجر وإن اختلف نوع الأجر، والثاني بدافع عقائدي، والفرق بين النوعين كبيرا جدا. والعمل هو جزء مهم جدا من الإنسان، ولا يُمكن أن يكتمل الإنسان إلّا به، لأنّه يُنمّي فيه النزعة والشعور والصفة[59]. ولكن لا بدّ من العودة إلى نوعي العمل، لأنّه إذا كان العمل من منطلق عقائدي ولا يقصد العقيدة الدينية فقط، فإنّه يؤدّي إلى كمال الإنسان، بينما العمل الّذي لا يُبنى إلّا على الأجر، فإنّه يُحوّل الإنسان إلى كائن ماديّ، هاجسه بناء العلاقات على أساس الربح والخسارة، وسيحوّل المجتمع إلى مجتمع تقوم فيه الارتباطات على الأسس المادية[60]، الّتي ستجعل الإنسان في نهاية المطاف غريبا ووحيدا في هذا العالم، وبذلك نكون قد بنينا شركة مساهمة تتجسد فيها جميع الخلافات على كافة المستويات[61].

هناك ثلاثة أسباب تدفع الإنسان إلى تكوين المجتمعات: الأول هو التفاوت في الكفاءات الّذي يجعل الأفراد في حاجة مستمرة لبعضهم البعض. والثاني هو عجز الفرد منفردا عن تحقيق جميع مصالحه وأهدافه، ما يُوجب عليه التواصل والتفاعل والتعاون مع الغير في سبيل تحقيقها. والثالث هو حاجة الفرد للحماية والدفاع عن نفسه، الأمر الّذي يستدعي وجود تنظيم مجهّز ومستعدّ للوصول إلى هذه الغاية[62].

إنّ حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان مستمرّة ومتجددة، وبما أنّ الإسلام عالج الجانب السلوكي للفرد، واعتبر أنّ تربيته هي محور الدعوة الإلهية حيث قال النبي(ص): "إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، فكان على الدين أن يهتم بالجانب الاجتماعي ويتدخّل في المسائل الاجتماعية، لأنّه لا يُمكن تربية الفرد ورفع مستواه الخلقي، وتركه يعيش في مجتمع لا ينسجم مع تربيته ومبادئه وأعرافه وقيمه. ولأنّ الفرد يتأثّر بالمجتمع ويؤثر به، ولأنّه جزء لا يتجزّء من المجتمع، ولأنّ إشباع رغباته يُلبّيها المجتمع، ولأنّ تطوره مرتبط بتطور المجتمع، كان لزاما على الدين أن يتدخل في تربية المجتمع وضبطه وتوجيهه.

إنّ ارتباط الدين بالنواحي الاجتماعية هو ارتباط وثيق، لذلك كان الإمام الصدر

يقول: إنّ مهمته الدينية تهدف إلى رفع مستوى الحياة الاجتماعية بصورة عامة، ورفع مستوى الثقافة الدينية عند المسلمين بصورة خاصة، لأنّه لا يُمكن رفع المستوى الديني دون العمل على المستوى الاجتماعي[63]. لهذا بدأ ببناء مؤسسات اجتماعية لتشغيل العاطلين عن العمل، وبمساعدة المحتاجين، وإيواء الأيتام وتعليمهم الصناعات والحرف الفنية.

لو أخذنا مثالا عن صناعة الآلات وعن كيفية استخدامها، لوجدنا حاجة مستخدميها إلى توجيهات الصانع لاستعمالها بالصورة المثلى. إنّ الله هو خالق الإنسان وهو العالم بكل آماله وطموحاته وآلامه وحاجاته وآثاره وكفاءاته ووظائفه ووظائف جميع مخلوقاته، وهو العارف بكل توجيه يحتاجه الناس في حياتهم وتنظيم علاقاتهم في سبيل خلق المجتمع الفاضل، كذلك التوجيهات اللازمة لتنظيم علاقة الإنسان مع جميع الموجودات الّتي تُشكل جزءا مهما من حياته[64].

إنّ التوجيهات الّتي ستجعل الإنسان يسير نحو الكمال المطلق في جميع جوانب حياته، هي رسالة الأنبياء، وهي الّتي ستدفعه إلى التفكير والتفاعل والعلم والعمل، دون تضييع وقته في البحث عن المناهج الّتي يحتاجها وعن ما هو أفضل له. وهذه الرسالات هي واحدة يحملها الرُسل كلٌ حسب ظروفه ووعي أمّته، ونضوج الفكر في زمانه[65]. إنّ جبهة الأنبياء واحدة، تدعو إلى تطبيق إرادة الله سبحانه، للوصول إلى كمال الخلق وإسعادهم في كل جوانب وجودهم.

خاتمة

سار الإمام الصدر على الدرب الّذي خطّه النبي (ص)، مقتضيا به ومستنيرا بعلومه ومتحصّنا بتعاليمه. وقد حاول أن يستحضر ما فعله الرسول (ص) عندما قال: "إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، فبدأ مسيرته بالتركيز على الجانب التربوي، الّذي من خلاله سيتمكّن من إصلاح المجتمع في جميع قضاياه. وعبّر عن ذلك صراحة عندما قال: إنّ مهمته الدينية تهدف إلى رفع مستوى الحياة الاجتماعية بصورة عامة، ورفع مستوى الثقافة الدينية عند المسلمين بصورة خاصة، لأنّه لا يُمكن رفع مستوى الثقافة الدينية دون العمل على الجانب الاجتماعي.

اعتمد الصدر في نهجه على الأسلوب التربوي الّذي ورد في القرآن الكريم، وعلى التعاليم الّتي جاءت في مضامين الآيات القرآنية، لتحفيز الجماهير على التفاعل الاجتماعي. فكان يُبيّن للناس الصورة الّتي خلق الله الإنسان عليها، والكرامة الكبيرة الّتي خصّه بها، والشرف العظيم والإمكانات الهائلة الّتي أعطاه إيّاها للقيام بدوره، وكذلك المخلوقات الّتي سخّرها لخدمته في سبيل أداء واجباته. والسبب في ذلك هو إظهار القيمة الحقيقية للإنسان، الّتي إذا ما عرفها ستُثار في نفسه الطاقات الكامنة، وتدفعه نحو التفاعل والعمل والإبداع.

وقف الصدر على معالم كربلاء، مُستلهما منها الدروس والعبر في التربية وغيرها. وكان يُقارن ويُطابق الوقائع الّتي وردت على واقع زمانه، لاستخراج العلاج

الّذي يحتاجه المجتمع لإصلاح ذاته. فكان يشرح للناس أسباب وأهداف الثورة الحسينية، والمُثُل والقيم والعِبر الّتي أنتجتها واقعة الطف. فبدءا بالتربية الحسينية والنهج الاجتماعي العاشورائي، ومرورا بالمرأة ودورها، والمكانة الّتي صنعتها لنفسها عندما التزمت نهج الحسين(ع)، وإلى كل ما ورد من معالم تدفع الإنسان نحو الصلاح والاستقامة والبناء والإنجاز.

إنّ مفهوم الأسرة والتربية المجتمعية هما نواة ومحور المجتمع. وهذا ما دفع الإمام الصدر إلى تكثيف المحاضرات الّتي تؤكّد أنّ دور الإنسان في بناء المجتمع وإصلاحه هو واجب ديني، لأنّ الفرد جزء لا يتجزأ من مجتمعه، وهو مؤثر فيه ومتأثر به، كذلك فإنّ إصلاحه وصلاحه وتقدّمه مرتبط بإصلاح وصلاح وتقدّم مجتمعه. لقد أولى الصدر موضوع الأسرة والتربية الأسرية عناية خاصة، وقد أعطى هذا الأمر هامشا واسعا من تحركاته، لما لهذا الجانب من تأثير بالغ على الحاضر والمستقبل معا.

آمن الإمام الصدر بالتربية كوسيلة وحيدة تؤدي إلى التغيير، وذلك عن طريق الثورة في الهدف لا في الطريق. وكان يرى أنّ للإنسان طموحا غير متناهٍ، وهذا الطموح يجب ضبطه وتوجيهه واستغلاله في خدمة المجتمع، لأنّه لو تُرك على طبيعته البشرية، لصار يُشكّل خطورة بالغة على بني قومه وعلى جميع المخلوقات. والسبب أنّ نزوات الفرد كثيرة وتدخل في طموحاته كجزء منها، وهي تدفعه دائما إلى تلبيتها ولو على حساب كل شيء. بينما إذا تمكّنت منه الأساليب التربوية، ستجعل منه صورة كاملة وآية من آيات الله سبحانه، وبذلك سيصبح الأداة المُثلى للتغيير.

يتوجّه الإمام الصدر إلى إعطاء صورة واضحة عن مواصفات المجتمع الأفضل الّذي يحتاجه الناس، والّذي يشتمل على حاجات الأفراد وتلبية طموحاتهم. فيبدأ بتعريف ذاك المجتمع وكيفية بنائه، ودور العلاقات والتفاعل بين جميع مكوناته في تطويره وتحصينه ليكون مجتمعا إنسانيا. ثم يؤكّد على دور العمل في البناء والاستمرار، لأنّ الإنسان لا يكتمل إلّا بالعمل لأنّه شرفه، وهو يلبّي فيه الصفة والرغبة والشعور.

إنّ الجانب الديني مرتبط ارتباطا وثيقا بالجانب الاجتماعي، بحيث لا يُمكن رفع مستوى الأول دون العمل على الجانب الثاني، وهنا يُفلسف الإمام الصدر سبب تدخّل الدين في القضايا الاجتماعية، ويُبرز دور الدين في تكوين المجتمع الافضل عن طريق تربية الفرد والمجتمع معا. ويرى أنّ رسالات الأنبياء هي واحدة وهي الوحيدة الّتي يُمكن لها أن تدفع الإنسان إلى التفكير والتفاعل والعلم والعمل، دون تضييع الوقت في البحث عن الأساليب والمناهج الّتي يحتاجها ليكون أفضل، لأنّها تدعو إلى تطبيق إرادة الله سبحانه.

***

الهوامش:

• **محاضر في الجامعة اللبنانية الدولية.**

1. موسى الصدر، دراسات للحياة، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط2، 2011، ص5 .
2. المصدر نفسه، ص 11-12 .

3. م. ن. ص. ن.
4. موسى الصدر، دراسات الحياة، المصدر السابق، ص11-12.
5. موسى الصدر، روح الشريعة الإسلامية وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2011، ص10-12.
6. المصدر نفسه، ص 12-13 .
7. موسى الصدر، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2016، ص7.
8. الصدر، دراسات للحياة، المصدر السابق، ص13.
9. المصدر نفسه، ص13.
10. المصدر نفسه، ص13-14.
11. الصدر، دراسات للحياة، المصدر المذكور، ص15.
12. سورة البقرة: 183.
13. سورة الحجرات: 10.
14. المصدر نفسه، سورة الرعد: 11.
15. محمد بن الحسن الحر العاملي، وسائل الشيعة، ج16، مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث، إيران، ط2، 1414هـ، ص 96.
16. سورة الإسراء: 70.
17. مؤتمر كلمة سواء، التنمية الإنسانية، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2006، ص 166.
18. سورة الصف: 2-3.
19. موسى الصدر، سائرون في موكب الحسين، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2009م، ص 7-8.
20. يعقوب ضاهر، مسيرة الإمام السيد موسى الصدر، يوميات ووثائق، ج5، دار بلال، بيروت، ط1، 2000م، ص 148.
21. ضاهر، المصدر المذكور، ج5، ص 154.
22. الصدر، سائرون في موكب الحسين، المصدر المذكور، ص 31.
23. م.ن. ص.ن.
24. المصدر نفسه، ص34-35.
25. الصدر، سائرون في موكب الحسين، المصدر المذكور، ص 34-35.
26. سورة البقرة: 31.
27. موسى الصدر، الإسلام وكرامة الإنسان، محاضرة ألقيت في الجامعة الأمريكية، كتبها الإمام الصدر وألقاها جعفر شرف الدّين باسمه، 8-2-1967م، محفوظات المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.
28. ضاهر، المصدر المذكور، ج1، ص 265-266.
29. سورة الحجرات: 13.
30. ضاهر، المصدر المذكور، ج2، ص 85.
31. موسى الصدر، تأسيسا لمجتمع مقاوم، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط7، 2007م، ص 38-39.
32. م.ن. ص.ن.
33. ضاهر، المصدر المذكور، ج2، ص86.
34. غسان همداني، من روائع أقوال الإمام الصدر، [لا.ط]، 2003م، ص 205.
35. بلال حسن نصرالله، فكر الإمام موسى الصدر، بحث غير منشور، ص 43.
36. الصدر، موسى الصدر والخطاب الإنساني، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، دار بلال، بيروت، ط1، 2009م، ص 366.
37. ضاهر، المصدر المذكور، ج2، ص 88.
38. الصدر، موسى الصدر والخطاب الإنساني، المصدر المذكور، ص 242-243.
39. موسى الصدر، التغيير ضرورة حياتية، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، 2011م، ص 40
40. المصدر نفسه، ص 40-41.
41. همداني، المصدر المذكور، ص 222.
42. موسى الصدر، أحاديث السحر، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط2، 2011م، ص 33.
43. بلال حسن نصرالله، المرجع المذكور، ص 82.
44. الصدر، التغيير ضرورة حياتية، المصدر المذكور، ص 42-43.
45. الصدر، تأسيسا لمجتمع مقاوم، المصدر المذكور، ص 254.
46. بلال حسن نصرالله، المرجع المذكور، ص 85.
47. الصدر، التغيير ضرورة حياتية، المصدر المذكور، ص 47-49.
48. المصدر نفسه، ص 7.
49. المصدر نفسه، ص 13.
50. الصدر، التغيير ضرورة حياتية، المصدر المذكور، ص 15.
51. سورة الرعد: 11.
52. بلال حسن نصرالله، المرجع المذكور، ص 35.
53. مجلّة الغدير، طلال عتريسي، تداعيات العولمة على مفاهيم التربية والتعليم، ع39، 2007م، ص 63.
54. موسى الصدر، لبنان بين الطائفية والعولمة، محاضرة ألقاها في جامعة القديس يوسف، 24-12- 1970م، محفوظات المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.
55. محمد مهدي شمس الدين، العلمانية، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1983م.
56. الصدر، لبنان بين الطائفية والعولمة، المصدر المذكور.
57. مجلّة الغدير، طلال عتريسي، المرجع المذكور، ص 63
58. الصدر، التغيير ضرورة حياتية، المصدر المذكور، ص 65.

59. المصدر نفسه، ص 66.
60. بلال حسن نصرالله، المرجع المذكور، ص 29.
61. الصدر، التغيير ضرورة حياتية، المصدر المذكور، ص 67.
62. موسى الصدر، الجانب الاجتماعي في الإسلام، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط2، 2009م، ص 7-8.
63. الصدر، تأسيسا لمجتمع مقاوم، المصدر المذكور، ص 17.
64. الصدر، أحاديث السحر، المصدر المذكور، ص 227.
65. المصدر نفسه، ص 227-228.

***

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- شمس الدين، محمد مهدي: العلمانية، المؤسسة الدولية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1983م.
- الصدر، موسى: أحاديث السحر، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط2، 2011م.
- الصدر، موسى: الإسلام وكرامة الإنسان، محاضرة ألقيت في الجامعة الأمريكية، كتبها الإمام موسى الصدر وألقاها جعفر شرف الدين بإسم الإمام، 8-2-1967م، محفوظات المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.
- الصدر، موسى: التغيير ضرورة حياتية، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، 2011م.
- الصدر، موسى: الجانب الاجتماعي في الإسلام، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط2، 2009م.
- الصدر، موسى: تأسيسا لمجتمع مقاوم، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط7، 2007م.
- الصدر، موسى: دراسات للحياة، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط2، 2011م.
- الصدر، موسى: روح الشريعة الإسلامية وواقع التشريع اليوم في العالم الإسلامي، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2011م.
- الصدر، موسى: سائرون في موكب الحسين، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2009م.
- الصدر، موسى: قولوا لا إله إلا الله تُفلحوا، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2016م.
- الصدر، موسى: لبنان بين الطائفية والعولمة، محاضرة ألقاها في جامعة القديس يوسف، 24-12-1970م، محفوظات المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى.
- الصدر، موسى: موسى الصدر والخطاب الإنساني، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، دار بلال، بيروت، ط1، 2009م.
- ضاهر، يعقوب: مسيرة الإمام السيد موسى الصدر، يوميات ووثائق، 12 جزءا، دار بلال، بيروت، ط1، 2000م.
- العاملي، محمد حسن الحر: وسائل الشيعة، 32 جزءا، مؤسسة أهل البيت لإحياء التراث، إيران، ط2، 1414هـ.
- مجلة الغدير: طلال عتريسي، تداعيات العولمة على مفاهيم التربية والتعليم، ع39، 2007م.
- مؤتمر كلمة سواء، التنمية الإنسانية، مركز الإمام موسى الصدر للأبحاث والدراسات، بيروت، ط1، 2006م.
- نصرالله، بلال حسن: فكر الإمام الصدر، بحث غير منشور.
- همداني، غسان: من روائع أقوال الإمام الصدر، لا. ط، 2003م.

***